عندما ستمْثُلُ أمامَ النظرات العذبة لبياتريشي، ستجدُ، حينها فقط، دربَ حياتك.

دانتي، الكوميديا الإلهية

لا خيلَ مثل قوافي الشعرِ جائلةً أبقى على الدّهرِ أعناقاً وآطالا
إن ينقُلِ الحتفُ عن عاداتِهِ بطلاً فما تزالُ معانيهنّ أبطالا

أبو العلاء المعرّي، اللزوميات

١) مدخل:

محورُ هذا الكتاب قُطبانِ أدبيّان يفصلهما كلُّ شيءٍ تقريبا، نحتاجُ مع ذلك لِقراءتِهما معا، لِيمرّ تيّارٌ مُلهِمٌ ينيرُ لنا الحياة:
نصّان أدبيّان فريدان خالدان: «رواية الغفران» (الجزء الروائيّ من «رسالة الغفران»)، و«الكوميديا الإلهية».
ألّفَهُما عملاقان عبقريّان: أبو العلاء المعرّي قبل حوالي ١٠٠٠ عام، ودانتي قبل ٧٠٠ عام تقريبا.

لعبَ كلُّ واحدٍ منهما دورَ إلهٍ في نصِّهِ، وهو يخترعُ الخارطةَ الجغرافيةَ للآخرةِ بطريقتهِ الخاصّة، يُدخِلُ من يشاءُ الجنّةَ أو جهنم (يُوزِّعُهم فيما يُشبِهُ تصنيفَ «جدول مندليف» على هَوَاه، ووفقاً لاستراتيجيتهِ ورؤاه).
يَسردُ تفاصيلَ حياةِ الناس هناك، ويخترعُ قصصَها وأحداثَها كما يريد. يلتقي راويهِ بالشيطانِ وبِسربٍ متنوِّعٍ عديدٍ من البشر والكائنات العجائبيّة، لا سيّما بِكبار شخصِيّات الأدب والميثولوجيا والدِّين والسياسة.
يُسرِّبُ رؤيتَه لِمفاهيم غيبيّةٍ كبرى: الغفران، الشفاعة، التوبة، النعيم، العذاب... ويَنسفُ أحيانا ما يشاءُ بغير حساب.

بِقراءتِهما معاً ندركُ أننا، على هذه البسيطة، لسنا أكثر من لا شيء (حتّى لا أقول: لسنا أكثر من بيانات إكْسِل Excel) لولا ثالوثُ التخييلِ والحريّةِ والإبداع، النابضُ في كلِّ حرفٍ من الكتابَين؛
لولا الحبُّ «الذي يُحرِّكُ الشمسَ وبقيّةَ النجوم»، كما يقول دانتي، عاشقُ بياتريشي التي قادتْهُ في رحلةِ الآخرة إلى الجنّة؛
لولا الشِّعرُ وعشقُ الكلمات التي تَعْبُرُ الأبديّةَ خيولاً جائلةً تخترقُ القرون، مشرئبةَ الأعناق، كما يقول المعرّي:

لا خيلَ مثل قوافي الشِّعرِ جائلةً أبقى على الدّهرِ أعناقاً وآطالا

لولا المرحُ والسخريّةُ الذي لجأ إليهما المعرّي في روايته، لإعادة صياغة الميثولوجيا الغيبيّة الأخرويّة وإثرائها، وتركِ بعضِ مسلّماتها تذهب إلى أقصى معانيها، مفرغةً نفسَها بذلكَ من أيِّ معنى!

المُحزِنُ فقط، ونحن نتحدّث عن هذين الكتابين، أن تأثيرَهما على القارئ العربي لا وجود له تقريبا.
إذا كان نصُّ دانتي قد اكتسحَ الأدبَ العالميّ، والغربي على نحوٍ خاص، منذ صدورِه، وعبر دراساتِه وترجماتهِ الأوربية المتعاقبةِ التي جعلته يواكب تطوّرَ اللغات المعاصرة باستمرار، وعبر صيَغِهِ المدرسيّة التبسيطية والمقتضبة التي تجعله يصل إلى طلاب الجامعات والمدارس في الغرب على الدوام، فإن نصَّ المعرّي (أحدَ أجملِ جواهرِ الأدب العربي قاطبة وأكثرها تميّزاً وإبداعاً وفرادة) لم يقرأه أحدٌ تقريبا، منذ صدورِه، وإن يمدحهُ الجميعُ عند ذِكْره!

لم يقرأه أحدٌ فعلا. ليس فقط لأن سوقَ القراءةِ في العالَم العربي فاترٌ شِبهُ ميّت، بل لأنّ النصَّ ذاتَه طاردٌ أيضا، بسببِ لغتِهِ النخبويّة التي عفا عليها الزمنُ في عصرنا هذا، وترفِ استطراداتِه المركّبةِ المتداخلةِ الشاسعة وثراءِ استشهاداتِهِ الزاخرةِ الطويلةِ جدا أحيانا، وإصرارِهِ القدير على استخدام أوسعِ عددٍ من المفردات، بما فيها النادرة جدّا، بأقلِّ تكرارٍ ممكن.
لا نستغرب مثلا، عندما نقرأه، من تعدّدِ صفات الدنيا «الفانية» في نصِّه: الذاهبة، الدانية، الزائلة، العاجلة، الخادعة، الماكرة... مما جعل روايتَه، حتّى اليوم، أثرى كتبِ العربية قاطبةً بالمفردات المتنوِّعة، والصعبة الغامضة أيضا.

لِمُجمَلِ ذلك، يستحيلُ مقاربتُه ومواصلةُ قراءتِهِ، من خارج دائرةِ كبارِ المتخصِّصين وعلماء اللغة. كثيرٌ من جملِهِ تبدو للقارئ العربي المعاصر كما تبدو الجملُ المكتوبة باللاتينية أو الإغريقية القديمة للقارئ الغربيّ تقريبا.

يكشف هذا الوضعُ البائسُ حجمَ تقاعسِنا التاريخيّ، منذ عشرة قرون، المسؤولِ عن عدم تحديثِ نصِّ المعرّي ليواكبَ لغةَ العصر، وعن عدمِ تقديمِ صيغٍ مقتضَبَةٍ تبسيطيّةٍ مدرسيّةٍ له، تصلُ إلى جميع قرّاء العربية وتُترجَمُ خارجَها.
صيَغٌ تفتحُ، بعد قراءتِها، شهيّةَ الجميع لِخوض مغامرةِ قراءةِ النصِّ الأصليّ لرواية الغفران، كما أبدعها أبو العلاء.

حاولتُ هنا إعادةَ كتابة «رواية الغفران» في صيغةٍ مبسّطةٍ مصغّرة، مُخفِّفا منها كثيرا من الاستطرادات والاستشهادات الطويلة، على غرار ما تفعل نصوصُ

المناهج المدرسيّة الغربيّة وهي تسعى لتقديم كبار الأعمال الأدبيّة الضخمة الشاقّة، في صيغٍ تبسيطيةٍ مقتضبةٍ أنيقة: تنتشلُ منها كلَّ ما يعيق أو يبطئ من قراءةِ غير كبار المتخصِّصين، لا سيّما طلاب المدارس والجامعات.

أضفتُ أحيانا جملاً صغيرةً بديلةً لما اقتطعتُه. خفّفتُ أيضاً من العددِ الهائلِ من الكلمات التي تحتاج إلى شرح معانيها في الهوامش، باستبدالِها بكلماتٍ حديثةٍ مناسبة، أو بوضع هذه المعاني في جُملِها مباشرةً (حتى لا يضطرَّ القارئُ إلى الذهاب إلى الهوامش بين كلِّ كلمةٍ وكلمةٍ تقريبا).
ظللتُ خلال ذلك وفيّاً لنصٍّ أعشقُهُ عشقاً، ومحافِظاً على رُوحِه وعلى جُملِهِ غير المعقّدة، كما هي دون مسّ.

ثمّ لزمني، في الفصل الخامس، الاستنادُ على مجموعةِ فرضيّاتٍ جادّة، تنطلقُ من فلسفةِ من قال «لا إمام سوى العقل» ومن تحليلِ نصِّه، لتقديمِ قراءةٍ استكشافية لرواية الغفران، تفتحُ البابَ للحوار العميق حول هذه الرواية التي يواجهُ الخوضَ الكاشفَ في تأمّلاتِها وأسئلتِها وأحداثِها سياجٌ لا مرئيٌّ حتّى اليوم، إن لم يكن محرّماً في الأساس على نحوٍ غير مُعلَن.
تحاول تجربة هذا الفصل أن «تُشعِلَ فتيلَ المتفجّرات التي تكمن في النصّ القديم»، حسب تعبير والتر بنيامين وهو يتحدّث عن كيف يلزم أن تكون لمساتُ القراءة عندما تمسّ عملا فنيّا ينتمي إلى الماضي.
لا يهمّ أن نصّاً عبقريّاً ك «رواية الغفران» ظلّ نائما عشرة قرون قبل أن تُضيء حياتَنا شراراتُ أفكارِه، لكن المهمّ أن يعود النصُّ اليوم طازجا إلى الحياة، وأن تجد دوما جملُه وأفكارُه الحريّةَ الكاملة التي تمنحه التجدّدَ والخلود، والتفاعل الدائم مع نصوص الماضي والحاضر والمستقبل.

كان الأمرُ أسهلَ بكثير فيما يتعلّق بالكوميديا الإلهية. لم أفعل معها غير الاتّكاء على ترجمتها الحديثة والجميلة بقلم الشاعر كاظم جهاد، المدجّجةِ بالهوامش العليمة والمدخل النقديّ الثري [انظر المراجع، ٢]؛ وعلى الاستضاءة، في الوقت نفسه، بِنصوصِ المناهج المدرسيّة الفرنسية ([انظر المراجع، ٤] التي تعرضُ مقتطفاتٍ واسعةً من الكوميديا الإلهية على نحوٍ مقتضبٍ تبسيطيٍّ أنيق.

اكتفيتُ منها بمقاطع محدّدة من سيول نشيدَي الفردوس والجحيم، دمجتُ فيها ترجمة جهاد بترشيق وتبسيط وتعديل النصوص المدرسيّة الفرنسيّة.
مقصدي تقديمُ صورةٍ عامّة، ماكروسكوبية لا غير، لبعض المنعطفات الرئيسة لما أسماها دانتي: «القصيدة المقدّسة» (الكوميديا الإلهية نصٌّ ضخمٌ، وترجمةُ الأستاذ الجامعيّ كاظم جهاد لها، مع شروحاته وهوامشِه، تتجاوز ال ١٠٠٠ صفحة).
أمَلي فيما فعلتُه هنا أيضا فتحُ شهيّةِ القارئ العربي لقراءة النصّ كاملا من ترجماته العربية، لا سيّما الترجمة التي اعتمدتُ عليها، أو من لغتهِ الإيطاليّة الأصليّة، بقلم دانتي، لمن يستطيع إليه سبيلا!

ولأن استنطاقَ الأعمالِ الأدبيّةِ الخالدة، وجعلَها تتواجَهُ، تنظرُ لبعضها البعض (من باب: «اعرفِ الآخرَ تعرفُ نفسك»)، تتفاعلُ وتتلاقحُ وتتكامل، هوَ ضرورةٌ جوهريّةٌ من منظوري، فإن هدفي في الفصل السادس هو القيام برحلةٍ زجزاجيةٍ استنطاقيّةٍ، «على صعيد المبنى والمعنى» كما يقول العارفون، داخل رحلتَي رواية الغفران والكوميديا الإلهية في الجحيم والجنّة.

سيسمحُ ذلك، فيما سيسمح كما أتمنّى، بإذكاءِ رغبةِ الغوصِ في غياهب تفاصيل العمَلين العظيمين وتوسيع الرؤيا بفضلِهما معا، وبتجاوزِ لغطِ المقارنة بينهما الذي يصلُ أحيانا لاتهامِ هذا بالاحتذاء بِذاك عند كتابة عملِهِ الخالد، دون قراءةِ هذا ولا ذاك، في الأساس!

لا يعرفُ أحدٌ في الحقيقة [انظر المراجع، ٥] هل سمع دانتي عن المعرّي وروايةِ الغفران؛ وهل سمع المعرّي عن ابن شُهيد الأندلسيّ و«رسالة التوابع والزوابع»، [انظر الملحق ٧]، قبل تأليف فصل «جنّة العفاريت» في رواية الغفران.
مؤلَفَا دانتي والمعرّي، كما قلنا وكما سنرى، قُطبان مختلفَان في الصميم، وإن جمعَهما أحيانا نهجٌ مشتركٌ، تفرضهُ طبيعةُ الرحلة إلى الآخرة والتوقُ للإصغاء لِبوحِ ساكنيها، أو تقارُبُ وجهات نظر المؤلِفَين حول الطبيعة الإنسانية أحيانا.

عن المقارنة بين كتابَي دانتي والمعرّي، يقول عبد الفتاح كليطو [انظر المراجع، ٦]: «إنّ هذه المقارنة في رأي معظم الباحثين لا جدوى منها؛ لأنّ دانتي لم يكن بوسعه الاطلاع على "رسالة الغفران" التي لم تترجم إلى أي لغة، بل لم تُحدث حتى في

الأوساط الأدبية العربية نقاشاً من شأنهِ إثارة فضول الإيطاليين أو سواهم من الأوروبيين. لكن عملية المقارنة هذه أخرجت "رسالة الغفران" من عزلتها الطويلة، إلى حدٍّ أنّه يمكن القول، من دون مبالغة، إنّ دانتي أثّر في إعادة قراءتنا للمعرّي».

بكلِمتين: هدفُنا الأسمى هنا حثُّ القارئ العربي على متعةِ التنقُّل بين عالَمين بديعَين، ونصّين فريدَين، وعبقرِيّين خالِدَين، برهنَ لنا أحدُهما أنّه «في البدءِ كانت المرأة»، وبرهنَ الآخرُ أن «في الختام، لا تبقى إلا الكلمة».